قصة عشر سنوات
فى طرابلس بافريقية

بقلم محمد فريد أبو حديد

هذا عنوان صدر به كتاب مطبوع فى لندن فى عام ١٨١٧ وليس عليه اسم المؤلف ، ولكن يفهم من ثنايا مقدمته أنه مجموعة خطابات كتبتها آنسة انجليزية ، هى أخت زوجة قنصل انجلترة بطرابلس ما بين سنتى ١٧٨٣–١٧٩٣ ، وهو (المستر تكلى) . وكانت الآنسة تبعث بخطاباتها على ما يلوح إلى بعض أقربائها أو أصدقائها المقيمين فى ليفورنيا بايطاليا ، ولسنا بسبيل تحقيق شخصية المؤلفة ولا إلى من أرسلت تلك الخطابات . فالذى يعنينا منها أنها كانت تسجل فى خطاباتها أمورا شهدتها أو أخبارا سمعتها ، فهى بالنسبة إلينا راوية تلقى أحاديثها ضوءا على أحوال طرابلس عندما كتبت هذه الخطابات فى مدة إقامتها بها .

والخطابات لا تذكر شيئا بل لا تكاد تشير إلى شىء من الحوادث الكبرى التى وقعت فى أوربا أو خارج ليبيا ، مع خطورة ماوقع هناك من الأحداث فى تلك السنوات التى شهدت ثورة فرنسا الكبرى . وشهدت أول عهد التحرير بأمريكا ؛ فالكاتبة إنما تهتم بالمشاهد التى ترى فيها ما يثير الدهشة فى أصحابها الذين تبعث إليهم خطاباتها ، أو التى تراها على الأقل بعيدة عن تجربتهم المعتادة ، كما يفعل كل من يزور بلادا ذات ثقافة مختلفة عن ثقافته ، فكل ماتقصه من الأقاصيص ، وكل ما تصفه من المناظر يتميز بطابع التعجب وإن لم تضعه صراحة فى قالب التعجب ، ولا أحسبها أرادت لتلك الخطابات أن تنشر يوما من الأيام ، فإن أسلوب كتابتها إنما هو أسلوب الصديق الذى يحدث صديقه بغير تكلف ، كأنما هو يناجيه فى جلسة خاصة يتبادلان فيها أطراف الحديث . وهذه الخاصة التى تتميز بها الخطابات تجعلنا بعيدين عن التحفظ فيما نأخذه عنها ، فإنها لا تتعمد فيها أن تستخلص نتائج أو تدعو إلى دعاية خاصة ، بعكس مانعهده فى كثيرين من الكتاب الأوربيين الآخرين

الذين كتبوا عن الشرق العربي في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، مثل (فولني) و (سافاري) و (سونيني) ؛ فهؤلاء الأخيرين كانوا يكتبون تقارير سياسية يريدون أن يستخلص الساسة منها أخبارا معينة ترشدهم إلى السياسة التي ينتهجونها قبل بلاد هذا الشرق العربي ، ولهذا فإنهم يتعمدون في كثير من الأحوال أن يصوروا الحقائق تصويرا يلائم الأغراض التي يقصد إليها الساسة الذين يخدمونهم . وأما هذه الآنسة فإنها تقول ما تراه ، وتعلق عليه تعليقا ساذجا ينم عن بساطة بريئة ، وقد تكون تعليقاتها قاسية أو لاذعة ، ولكنها في كل الأحوال لا تنم عن غاية خفية من ورائها ، وكثيرا ما تظهر جهلها بالتاريخ إذا هي تعرضت إلى ذكر بعض الحوادث الماضية التي لم ترها بعينها ، كما أنها تكثر التخليط إذا ما تحدثت عن البلاد العربية الأخرى كمصر مثلا .

ولهذا كان خير ما نستمده من تلك الخطابات ما تتحدث فيه عن طرابلس وما حولها ، أو عن البقاع الأخرى التي شهدتها في جولاتها .

وكانت طرابلس في هذه الحقبة دولة ذات سلطان واسع يمتد إلى برقة وفزان وإلى برنو وأكاف تيچريا . وكان لباشا طرابلس سيادة محترمة في قلب القارة إلى ما يقرب من أقاليم النيل الأعلى . ولولا أن الباشا كان يتبع سلطان الدولة العثمانية أسميا لكان أجدر بأن يسمى ملكا ، ووجه الشبه عظيم بين نشأة هذه الدولة الطرابلسية وبين نشأة دولة محمد علي باشا كما سنذكر بعد قليل ، بل أن منشىء هذه الدولة كان على أغلب الظن هو المثال الذي ترسم محمد علي خطواته في إنشاء دولته ، فحديث الكاتبة عن طرابلس إنما يقصد به كل البلاد التي تتكون منها الدولة الليبية في الوقت الحاضر ، بل تزيد عليها بامتدادها إلى اقليم برنو الذي يقع اليوم في أملاك فرنسا ، فيما تسميه بالسودان الغربي أو الفرنسي .

وجد هذه الأسرة أحمد باشا القرمانلي الذي استولى على الحكم في سنة ١٧١١ — وان كانت الكاتبة تذكر أنه بدأ حكمه في سنة ١٧١٤ — وقد كان في أول أمره أحد الضباط في الجيش التركي ، وتقول الكاتبة إنه ترقى حتى صار حاكما

على مدينة طرابلس ؛ ولكنه كان على كل حال من كبار الضباط فى الجيش التركى ، وكانت له علاقات صهر ببعض المتنافسين على الحكم فى وقته ، وكان يشبه محمد على ، أو بقول أدق كان محمد على يشبهه : فى أنهما تباعدا عن المنازعات الثائرة بين زعماء الجيش الطامعين فى تولى الحكم ، وما زالا حتى اعتقد الأعيان وجمهور الضباط أنهما من أهل الخير فرشحوهما للولاية .

وهكذا اختار الديوان أحمد باشا ليكون واليا على البلاد ، غير أن أحمد باشا لم يستقر فى الولاية عندما اختاره الديوان ، لأن الباشا القائم كان لا يزال باقيا فى البلاد ، ولأن السلطان العثمانى لم يوافق بعد على القرار الذى اتخذه الديوان ؛ فأما الباشا القائم فقد حاربه أحمد باشا حتى اضطره للانتحار ؛ وأما السلطان العثمانى فإنه أرسل بعد قليل باشا من عنده ليتولى حكم البلاد ، فوقف له أحمد باشا وهزمه واضطره للرجوع إلى قسطنطينية ، وتذكر الكاتبة أن أحمد باشا تبنى ولد الباشا الذى كان قبله ، ولعله قد فعل ذلك وإن لم تذكر كتب التاريخ شيئا عن ذلك ، وليس بالبعيد أن يكون أحمد باشا قد تبنى ولد الباشا المنتحر عندما بقى بغير عائل بعد انتحار أبيه ؛ والكاتبة تتحدث عن ذلك الولد فيما بعد حديثا طويلا سنعرض لشىء منه فيما بعد .

ومهما يكن الأمر فقد اضطر السلطان العثمانى إلى الاعتراف بأحمد باشا واليا على طرابلس بعد أن عجز عن القضاء عليه ، وهذا هو ما فعله السلطان العثمانى الآخر بعد قرن من الزمان عندما اعترف بمحمد على باشا واليا على مصر بعد أن عجز عن القضاء عليه .

ولا يقف الشبه بين أحمد باشا القرمانلى ومحمد على باشا عند ذلك الحد ، بل تكاد سيرتهما فى الحكم تكون واحدة ، فقد استمر أحمد باشا فى حكمه ثلاث سنوات يحاول أن يدعم سلطانه ، وما كان ليستقر فى الحكم وجنود الجيش التركى وضباطهم راصدون له يتربصون به الفرص ، وكان مسلكه فى التخلص من هؤلاء المتعبين هو النموذج الذى احتذاه محمد على فيما بعد فى القضاء على أمراء المماليك بمصر ، فإنه أعد وليمة فى السراى — مقر الحكم — ودعا إليها كبار القواد والأعيان فى الجيش ، وهناك كان قد أعدّ أعوانه

ومع كل منهم وتر قوس ليخنقوا به من يعرجهم من هؤلاء الضيوف ، فأخذهم الأعوان واحدا واحدا ، وألقوا بهم في جب عميق ما يزال إلى اليوم باقيا في القصر تحيط به رهبة شديدة من أرواح المئات الذين تدفنوا فيه .

وبعد ذلك تتبع أعوانه جنود الجيش التركي في المدينة حتى أفنوهم إلا من استطاع الهروب بين أهل البلاد ، وهذا مثل ما فعل محمد علي عندما تتبع المماليك في القاهرة قتلا وأسرا بعد أن قضى على زعمائهم في مذبحة القلعة ..

ولما استقر له الأمر بعد الخلاص من القوة المخيفة التي كانت تهدده بدأ يكون دولته وجعل مقرها في السراى القديمة التي ما تزال مطلة على البحر الأبيض في مدخل المدينة القديمة ، ويسميها أهل طرابلس في هذه الأيام بالسراى الحمراء ـ وما أجدرها بهذا الاسم الذى لا نعرف بالدقة السبب في إطلاق ذلك الوصف عليها ـ ؛ ولم ينس ـ كما لم ينس محمد علي باشا ـ أن يدعم حكمه بعد أن استقر فيه بإرسال أعظم الهدايا إلى السلطان العثماني ، وإتحاف أتباعه وحاشيته بكثير من العطايا .

والكاتبة تصف الباشا الذى كان يحكم البلاد في وقت إقامتها بطرابلس وصف العارف الخبير ، فقد كانت تعرفه وتعرف أسرته ، وكثيرا ما كانت تقيم في السراى ، وتحضر حفلاتها في مناسبات الأفراح والمآتم ؛ وهي تصفه متأثرة بهذه المودة التي كانت تحملها له ولأهله ، فهي تتحدث عن مجده وسعة أفقه ، وعن رحمته واعتداله وأكبر ما كان يعجبها فيه التسامح مع الأوربيين ومع اليهود الذين كانوا وما يزالون يقبضون على أزمة المال والتجارة في طرابلس ، وتصف لنا في أسلوب بسيط ممتع كيف كان يتخذ لنفسه معيرة من عجائز اليهود اسمها «استر» وكيف كانت تذهب إلى السراى كل يوم راكبة على حمار يحملها عليه خدم القصر الذين يرافقونها من بيتها ؛ إذ كانت شديدة السمن لا تستطيع أن تركب إلا إذا تعاون على حملها بعض الأتباع .

وكان الباشا كما تقول الكاتبة يأنس إليها ولا يشعر بالأمن إلا إذا جلست إلى جانبه تحدثه حتى ينام على هدهدة قصصها ؛ مسكينة استر ، لقد كان القدر يخبأ لها نهاية لم تحلم بها عندما كانت تعبث بشعر الباشا وهي تقص عليه قصصها ، فإنها كانت من أولى ضحايا الاضطهاد عندما تغيرت الحال وعزل الباشا في آخر حياته كما سيأتي ذكره .

والكاتبة تصف محافظة الباشا على أبهة الملك ورسومه التي عني جده أحمد باشا بابتكارها لتكون طابعا لدولته ، فكل مظاهر الحياة في القصر وما يجيء الباشا من احتفالات يجري على سنن معروفة محترمة ، سواء أكانت في الملابس الرسمية أو في الحركات والايماءات . ويظهر من وصفها أن علي باشا كان يشبه في كثير من الوجوه خديوي مصر إسماعيل ، والشبه بينهما يزداد عندما نرى أن آخرتهما كانت واحدة ، فقد اضطربت أحوالهما اضطرابا شديدا أدّى إلى عزلهما ، ولم تنبث البلاد بعد ذلك أن تورطت في منازعات مع الدول الأجنبية أدت آخر الأمر إلى زوال المجد الذي كانا يحرصان على إعلاء صرحه . وكانت دولة طرابلس مقسمة إلى أقاليم يحكم كلا منها حاكم يلقب (بيه) ، فهناك بيه بنغازي ، وبيه درنه ، وبيه طرابلس ، كما أن هناك رؤساء آخرون للدوائر والقرى .

وتتكون أسرة علي باشا من زوجته (للأحلومة) وأبناء ثلاثة وبنات ، ولكل منهم مكان في أحاديث الكاتبة : فأما البنات فقد كان الباشا على ما يظهر لا يجد لهن الأكفاء بين أهل البلاد ، فكان يختار لهن أزواجا يصنعهم بنفسه ، فقد زوّج الكبرى من رجل أصله ايطالي من (نابولي) ثم أسلم وسمى نفسه الحاج مراد ، وألحقه الباشا بخدمته ، فعهد إليه بإدارة الجمارك وهي من أكبر وظائف الدولة في ذلك الوقت . وتقول الكاتبة عنه أنه كان لا قيمة له في عين زوجته ، فكانت تسيء معاملته كأنه خادم ، ولكنه كان لا يعبأ بذلك لما يناله من الجاه والغنى من وراء زواجه بها ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إن الحاج مراد عمل على تدعيم صلاته بأسرة الباشا بأن زوّج ابن أخيه من إحدى بنات الباشا الأخريات .

وأما أولاد الباشا فالكاتبة تصفهم واحدا واحدا حتى لتكاد صورة كل منهم تظهر واضحة من ثنايا سطورها ، فأكبرهم سيدى حسن الأنيق ، وهو أجمل الأمراء صورة وأعلاهم هيبة ، وهو فارس شجاع يجيد ركوب الخيل ويسبق دائما فى مباريات السباق ، وكان إذا ركب يسير وراءه مماليكه الذين بلغ عددهم مائتى مملوك يلبسون الحلل الثمينة ويركبون الخيول الأصيلة ذات السروج المحلاة بالذهب والفضة ، وكانت له شارة تميزه وهى (الطوخ) ، وهى شارة الرياسة تشبه ذيل الحصان ، وكان للباشا شارة أكبر منها ، وهى الأطواخ الثلاثة التى تحمل أمامه فى الموكب اذا ركب فى احتفال رسمى ، ومما يذكر هنا أن محمد على باشا كان هو الآخر صاحب أطواخ ثلاثة ، والسلطان العثمانى وحده هو الذى يخلعها على عظماء دولته .

وكان الأمير حسن يريد الزواج من ابنة (عبد الله بك) شاه القصر ، وهى فتاة كانت معروفة بحسنها وكمالها ولكنها ماتت قبل أن يتزوج منها .

والكاتبة تتحدث عن عبد الله بك شاه القصر أحاديث طويلة ، وتقول إنه هو الطفل الصغير الذى تبناه منشىء الأسرة بعد أن حرم من والده الباشا السابق ، وقد مرت الإشارة إلى ذلك . وكان (عبد الله بيه) عند ذلك شيخا نيف على السبعين ، ولكن الباشا كان يعهد إليه بوظيفة شاه القصر ، وهو المتصرف فى شئون الأتباع والحشم ولا يجرؤ على الباشا أحد غيره . وقد استمر الشيخ مكرما حتى لحقت به النكبة آخر الأمر عندما اضطربت الأحوال بالأسرة الحاكمة كما سيأتى ذكره .

وتذكر الكاتبة بعض قصص تدل على سمو نفس الأمير حسن ومروءته ، ومن أمثال ذلك أنه كان مرة يحتفل بتكريم طائفة من ضباط البحرية الانجليزية وجنودها بمناسبة زيارة بعض قطع الأسطول البريطانى بطرابلس ، وكان الاحتفال فى حديقة الأمير خارج المدينة حيث أقيمت مباريات السباق بين الفرسان ، ومدت موائد الطعام على طريقة البلاد ، وأراد أحد الأجلاف من البحارة أن يمزح ، فاقتطف برتقالة من فوق شجرتها ، وقذف بها إلى عمامة

الأمير فأطارها . وهاج مماليك الأمير وهموا بالبحار يريدون أن يقتلوه ، فسارع الأمير إلى البحار فأجاره منهم ، وتغاضى عن الاساءة التي لحقت به ، وكان ظريفا عندما قابل اعتذار الضباط بسماحته الفياضة .

والكاتبة ترسم صورة أخرى للأمير الأوسط سيدى حسن ، الذى كان مثالا لابن الملوك المولع الذى يهتم بمظاهر الأبهة ويحب عيشة النعيم ، ولا يجد فى الملك بعد ذلك ما يهمه من الأمور العامة أو الخاصة .

وأما سيدى يوسف الأصغر فالكاتبة تصفه بأنه شاب متهور عنيد ، مخادع ، وتذكر عنه بعض قصص تدل على أنه كان فتى خليعاً ، إذ قالت عنه أنه كان يتدسس إلى حفلات النساء متخفياً كامرأة ، وكاد يكشف أمره فى إحدى المغامرات لولا أن تسلل بمساعدة بعض صديقاته المتبذلات . بل لقد كان لا يتورع كما تقول الكاتبة أن يراود بعض نساء أسرته ولا يعبأ بما قد يجره ذلك من الفضيحة ، وكان شديد الحسد لأخيه الأكبر حسن بصفة خاصة ، ويؤخذ من ثنايا ما تقوله الكاتبة أنه كان يضمر رغبة أثيمة لزوجة أخيه .

وكان الخلاف يدب بين الأخوين فى كثير من المواقف ، وكان الأمير حسن فى كل مرة يتغاضى عنه حتى صار ما بينهما عداوة مستقرة ، وحاول الباشا الشيخ أن يصلح بينهما ، فكان يوسف يخضع فى الظاهر أمام أبيه ثم يعود إلى دأبه من المشاحنة بعد قليل ؛ وكان له حرس يشيه حرس أخيه حسن ، ولكنه كان فوق هذا يتقرب من ذوبان القبائل والمتمردين من شيوخها ؛ وقد آل الأمر بينه وبين أخيه إلى مصادمة دموية أدت إلى قتل سيدى حسن كما سنذكر فيما بعد .

وللكاتبة نظرات نافذة فيما تراه ، وهى تردد فى خطاباتها مجموعة من الملاحظات والأقاصيص تدل على ذكاء طبيعى لا تكلف فيه .

وكان من أول ما كتبت عنه وصف استقبالها عندما أتت هى وأسرتها الى طرابلس أول مرة . فقد كتبت فى خطابها الذى بعثت به فى ٣ يوليه سنة ١٧١٣ أنها وجدت فى استقبال أسرتها جمعا من الوطنين يلبس بعضهم

الملابس الحريرية والقطيفة ذات الفراء الثمينة ، وعليهم من الحلى والجواهر ما يبهر الأنظار ، ومن ورائهم جمع من البؤساء الذين لا لباس لهم سوى قطع سمراء من (القطن ؟) . — ولا شك أنها تقصد الصوف وهو ما يلبسه أهل البلاد — أو ما هو أخف من ذلك وأحقر مما يشبه الملاءة القذرة المهلهلة ، فكان الفرق بين الحالين عاملا على اظهار أبهة العظماء المستقبلين وإبراز بريق ملابسهم .

وليست الكاتبة هي الوحيدة في نظرتها هذه ، فقد سبق لي أن قرأت مثل هذا الوصف في كتاب صحفي انجليزي عنوانه (من قبرص إلى الكاب) يصف فيه الكاتب احتفال الخديو إسماعيل بافتتاح قناة السويس إذ كان الكاتب حاضرا فيه . فقال :

" وجلسنا على موائد فاخرة ، فيها أنواع من المطاعم اللذيذة والأشربة الفاخرة ، والفواكه ، مما قد تكفي فضلات مائدة واحدة منها لإطعام أهل القرى الكثيرة الجائعة التي حولنا "

وليس أجدر بأن يهز النفس من كلمة النقد الحادة إذا صدق قائلها .

وكان مما استرعى نظر الكاتبة لأول وهلة نمط الحياة التي يسير الناس عليها في وقتها ، وإن كانت المناظر التي تصفها مألوفة لدينا معاشر أهل البلاد العربية ، فهي تقف طويلا عند مراسم الصلاة ، واحتفالات الزواج ، والمآتم ، وتقاليد رمضان ، والمسحراتي ، وزيارات الأعياد ، وولائم المواسم ، وهي تصف دقائق ملابس الرجال والنساء ، كما تصف الأسواق الضيقة المسقفة ، وسوق الرقيق ، وسوى ذلك مما كان ولا يزال الكثير منه معروفا عندنا .

وهي تتحدث طويلا عن حجاب النساء ، ذلك الحجاب الكثيف المضروب على النساء في طرابلس ، وهو لا يكاد يشبه حجابا آخر في بلد عربي آخر ، وما تزال طرابلس محتفظة بهذا التقليد رغم التطور الكبير الذي طرأ على حياتها في نواح كثيرة أخرى ، فالطرابلسيات ما يزلن يلبسن (البركان) عند خروجهن ، وقلما يخرجن من منازلهن ، والبركان غطاء يلف الجسم كله من أعلاه وأدناه ، فلا تنظر المرأة طريقها إلا من فتحة صغيرة تفتحها

بأصابعها أمام إحدى عينيها ، والحجاب فى المنازل ما يزال على عهده كما رأته الكاتبة أو يكاد ، فالمرأة لا تظهر لرجل وإن كان من أسرتها ، وكانت فى زمن الكاتبة لا تظهر لمحارمها .

وكان المتعارف عليه — كما تقول الكاتبة — أن الرجل لايدخل إلى مكان الحريم فى بيته إذا كان فى البيت ضيفة ، وعلامة وجود الضيفة أن تضع ربة البيت (حذاء) عند باب الحريم فلا يتعدى رجل ذلك الباب ، وتقول الكاتبة أيضا إن ذلك التقليد كان يساء استخدامه من ذوات النوايا السيئة من النساء ، كما كان يتخذ وسيلة لتلمس ذوى النوايا السيئة من الرجال بين النساء بأن يلبس زيهن ؛ وقد ذكرت من ذلك أمثلة من بينها يوسف ابن الباشا الذى كان كثيرا ما يندس فى وسط حفلات النساء فى القصر أو فى الأسر الكبرى وهو فى ملابس امرأة .

وإذا كانت الكاتبة قد حصرت أكثر همها فى مدينة طرابلس ، وفى وصف ما كان يدور فى دائرة الطبقة العليا من المجتمع خاصة فإنها مع ذلك ذكرت كثيرا من الأمور المتصلة بحياة الناس خارج المدينة فهى تتحدث عن الأعراب وأزيائهم وعاداتهم وطرق معيشتهم فى بيوت الشعر المتنقلة مع فصول السنة .

ومما جاء فى وصفها للعرب إعجابها بما سمعت عن مروءاتهم ومحافظتهم على الشرف بحسب تقاليدهم ، وهى تذكر قصتين تستحقان أن نعيدهما هنا :

فالأولى تتصف مروءة العرب وشهامتهم ، إذ كان بين اثنين من مشايخ القبائل عداوة قديمة وثأر بدماء ، واتفق أن كان أحدهما فى رحلة طويلة وعرج على أحد البيوت يستضيف صاحبها ليلته . فأكرم صاحب البيت وفادة ضيفه ، وجلس فى الليل يسامره فظهر من ثنايا الحديث أن الضيف غريم صاحب البيت ، فلم يزل صاحب الدار عن سنة الكرم المتوارثه ، وأبى إلا أن يستمر على إكرام ضيفه حتى طلع الصباح ، فصرف عدوه بعد أن أعطاه فرسا سريعة ، وقال له : « الج بنفسك على هذه الفرس ، وسألحق بك . فاذا أدركتك أخذت منك ثأرى » وقد استطاع الضيف أن ينجو بفضل تلك الفرس السريعة ، فلم يستطع غريمه أن يدركه .

وتذكر الكاتبة قصة أخرى تعزى إلى أحد المرابطين وهم المشايخ الذين كانوا يجمعون بين الزهد والفروسية ، وإن كان هذا اللقب يطلق اليوم على رجل الدين المعتكف عن الدنيا ، وكان لبعض هؤلاء مكانة كبيرة عند العامة والخاصة ، ولا يزال لقبورهم قداسة عند الناس إلى اليوم ، ومن هؤلاء سيدى (الصيد) وكلمة الصيد معناها عندهم الأسد ؛ وكان لقهره فى زمن على باشا مكانة كريمة حتى أن أبناء الباشا عندما كانوا يختلفون كان الذى يريد يصلح بينهم يقترح عليهم أن يذهبوا إلى ضريح (الصيد) ليحلفوا عنده اليمين على ألا يخون أحدهم الآخر ، وكان ضريح هذا المرابط يعد ملجأ للخائف يلوذ به من يخشى الاعتداء من عدو قوى .

وتذكر الكاتبة عن صاحب هذا الضريح أنه كان يعيش فى أيام حكم أحمد باشا مؤسس الأسرة القرمانلية ، فخرج الباشا ذات يوم فى بعض رحلاته خارج المدينة فمر ببيت هذا الشيخ ، ورأى ابنته وكانت فتاة جميلة فخطبها إلى أبيها ، ولم يسع الشيخ إلا أن يقبل كارها ، ولكن الباشا عندما حمل الفتاة ليتزوجها وأراد أن يدخل بها وجدها ميتة ، فلما سأل أباها عن سبب موتها قال إنها قد آثرت أن تأخذ السم لتموت على أن تكون زوجة له .

وذلك فى نظر الكاتبة دليل على أن الباشا لم يكن فى نظر الفتاة العربية وأبيها كفئ لأن يكون زوجا لها .

ونستطيع أن نستخلص من وصف الكاتبة لطرابلس وما حولها ، ومن أحاديثها عن إقليم برقة والجبل الأخضر أن البلاد لم تتغير فى مجموعها إلا قليلا عما كانت عليه فى آخر القرن الثامن عشر .. اللهم إلا مدينة طرابلس نفسها التى أضاف إليها الايطاليون إضافات جعلت منها مدينة جديدة .

فالكاتبة تصف سهول طرابلس الفيحاء وأرضها الخصبة التى تروى من الآبار وزراعة القمح والشعير فى موسم الأمطار وتتحدث عن المراعى التى تجعل الأرض مثل بساط أخضر مزدهر إذا كانت الأمطار غزيرة ، وتصف إقليم جبل غريان فى جنوب طرابلس والمنازل التى ينحتها أهل

ذلك الجبل فى أعماق الصخر . ثم هى تتحدث عن الآثار التى خلفها الروم فى صبراته وفى لبده وتصف باب اورليان ، ثم تتحول إلى برقة وجبلها الأخضر والآثار العظيمة التى فى مدينة (قيرين) القديمة ، التى يطلق اليوم عليها اسم (شحات) ، وأنه لجدير بنا معا شر المصريين أن نعرف هذه البلاد التى تجاورنا ، فإن أكثرنا لا يعرف عنها إلا أنها امتداد للصحراء الغربية ، مع أنها بلاد جديرة بأن تكون من أكثر جهات الأرض عمرانا ، وفيها إقليم الجبل الأخضر فى برقة ، وهو لا يقل عن لبنان فى روعة مناظره ، لولا أن لبنان كان موقع خدمة أبنائه منذ أقدم الأزمان ، ومايزال الجبل الأخضر فى حاجة إلى خدمة أبنائه ، ففيه من الأرض الخصبة والعيون الجارية والأودية النضرة والأشجار الدائمة الخضرة ما يجعله أهلا لأن يكون مرتعا خصبا ومزرعة ذات أكل وثمر ، ومصيفا من أجمل المصايف حول البحر الأبيض المتوسط .

وآفة هذه البلاد فى الوقت الحاضر هى آفتها فى الزمن القديم ، وذلك قلة الأمطار وعدم انتظامها ، ففى أشهر الجفاف تكون مشكلة المياه مشكلة حياة أو موت فى كثير من الجهات ، وقد اعتاد الناس أن يخزنوا المياه فى حفر عميقة يسمونها (الماجل) أو كما يقولون أحيانا (الماجن) ، وذلك حيث لا توجد الآبار ، وهذه المياه المخزونة عرضة للتلوث بجراثيم الأمراض وأنواع الديدان .

وحديث الكاتبة عن الآثار القديمة حديث طريف ، فان مراحل هذه البلاد كانت منذ القدم متصلة بالمدنيات المحيطة بها ، فتدخل فيها الفينيقيون قديما ، وانشأوا مدينتى (صبراتة) وأويا — وهى طرابلس القديمة — ثم نزل اليونان فى مراحل برقة ولهم هناك آثار واسعة أهمها فى مدينة شحات (قيرين) ، ولما جاء الروم واستولوا على البلاد من شرقها إلى غربها أضافوا إلى تلك المدن القديمة إضافات جعلتها تتخذ صورة جديدة ، كما أنهم أنشأوا مدينة كاملة وهى المعروفة اليوم باسم (لبدة) — واسمها الرومانى (ليبس مانيا) موطن أحد أباطرة الرومان ، وهو (سبتيموس سفيروس) ، واسم طرابلس ومعناه المدن الثلاث ليس إلا وصفاً لمركز إقليم المدن الثلاث القديمة : وهى صبراتة

وأوبا ولبده ، كما أن إقليم برقه كان يطلق عليه اسم بنطا بولس ومعناها المدن الخمس ، نسبة إلى المدن المبعثرة على السواحل ، وفى الجبل الأخضر وعدد أكبرها خمسة ، وأهمها : برنيق ، بنغازى ، وبارقه ، المرج ، وفيرين (شحات) .

ومن أهم مشاهد هذه الآثار القديمة بقايا المسرحين الرومانيين القائمين إلى اليوم فى صبراتة ولبده ، حيث كان الرومان يشهدون المصارعات أو التمثيليات أو مناظر فتك الوحوش بالمسيحيين ، ومدرجاتها مبنية بالحجر فى نصف دائرة ، وفيها مقصورات للأعيان والحكام وتتسع مقاعدها جميعا لبضعة ألوف ، وفى المدن بقايا العمران القديم من أسواق عامة ، ومرافق ومعابد ، وما تزال أجزاء كبيرة منها تحت الرمال تنتظر العلماء ، وللأموال للكشف عن أسرار تاريخية كثيرة مجهولة .

ولا تكتفى الكاتبة بوصف الآثار ، بل هى تصف الناس والأشياء ، فترسم صوراً لنساء الأعراب اللاتى يجملن وجوههن بالوشم ، وتصف ملامح وجوههن وتقول إن فيهن جمالا لولا ما يعلوهن من آثار الرمال والشمس ، وتتحدث عن شرب الرجال لنوع من المسكر اسمه (اللاقبى) وهو ما يزال إلى اليوم محبوبا عند طائفة من أهل طرابلس ، ويستخرج اللاقبى من النخل باستنزاف العصير من أسفل قمته الخضراء ، وهو إذا شرب حلوا كان لذيذاً ولم يسكر ، ولكنه شديد الإسكار إذا تخمر ، والنخلة التى يستنزف منها اللاقبى تمكث ثلاث سنوات بغير إثمار .

وكان مركز الدولة فى أيام الكاتبة خطيراً برغم ما يحيط بالحكام والأعيان من مظاهر الأبهة والمجد ، فقد كان على باشا محاطا بعداوات كثيرة من داخل بلاده ومن خارجها ، فمن الداخل كانت القبائل فى اضطراب مستمر ، وزاد اضطرابها عندما وقع الخلاف بين أبناء الباشا الثلاث ، واستفحل أمره كما سيأتى ذكره ، وكانت سياسة الباشا قائمة على أن يضرب بعض الشيوخ وقبائلهم ببعض ، وقد نجح فى أول الأمر نجاحا ظاهرا فى هذه السياسة ، ولكن الأمر انتهى بعد ذلك إلى ما يكاد يشبه الفوضى ، فإن حل المشكلات يوما فيوما

لم يكن قائما على سياسة مرسومة فى الحكم ، ولا لوم على الباشا فى ذلك، فإن الظروف المحيطة به كانت لا تتيح له فرصة الحكم المطلق الذى تمكن من فرضه محمد على فى مصر .

ودولة طرابلس واسعة الأطراف ، صعبة المواصلات ، وتسكنها قبائل متفرقة ، لكل منها حكم شبه مستقل ، وما تزال هذه مشكلة قائمة إلى اليوم ، وإن كانت أقل حدة عما كانت عليه فى العهد القرمانلى .

وأما من الخارج فقد كان لدولة طرابلس أعداء كثيرون فى الدول المحيطة بها من تجاه جنوب أوربا ، كما كان لها مصادمات أخرى مع الدول البحرية كافة ، وكانت طرابلس منذ أوائل القرن السادس تملك قوة بحرية ذات سطوة عظيمة ، وما يزال بمدينة طرابلس مسجد (درغوت) أكبر قواد البحر الأتراك ، وكان واليا على طرابلس فى منتصف القرن السادس عشر ، وقد مات هذا القائد البحرى فى أثناء حصار العثمانيين لجزيرة مالطة .

واستمرت قوة طرابلس البحرية إلى زمن الدولة القرمانلية ، فاهتم منشئها أحمد باشا بزيادتها حتى أصبحت لها السيادة على سواحل شمال افريقيا ؛ وكانت المصادمات مستمرة بين بحارة طرابلس وبحارة نابلى وأسبانيا ، بل بينهم وبين بحارة انجلترة والدول الشمالية .

وكانت الدول البحرية تدفع للحكومة الطرابلسية أتاوات سنوية نظير عدم التعرض لسفنها ، ولكن قواد السفن كانوا يجدون فى الإغارة على سفن التجارة مغانم كثيرة تشارك فيها الدولة بنصيب وافر ، فأدى الأمر إلى تطور جديد عندما صارت هذه القوة البحرية شبه مطلقة من رقابة الدولة ، حتى اعتاد الأوربيون يسمون أصحابها (بالقراصنة) ، ومهما يكن الأمر فقد كانت هذه المصادمات من أكبر مشاغل الدولة فى أيام على باشا ، كما أنها تطورت إلى أن أصبحت كارثة فى أيام ولده يوسف باشا .

ولم تقتصر المشاغل على هذه المصادمات البحرية مع دول أوربا ، بل كانت هناك مصادمات أخرى مع الدولة المجاورة (تونس) .

وقد حضرت المؤلفة حفل إنزال إحدى السفن الحربية فى ميناء طرابلس ، وكان صاحبها هو الأمير سيدى حسن ، وقد باركها الأمير بأن ربط فى مقدمتها عبدا أسود ليجلب لها السعد بموته ، كما ذبح عليها كبشا أبيض مزينا بالزهر وشرائط الحرير البيضاء .

وإلى جانب هذه المشاكل السياسية الأجنبية ، كانت الدولة العثمانية لا تفتر عن انتهاز الفرص لاسترجاع حكمها المباشر على طرابلس ، وقد حدث مراراً أن جاء أسطول تركى بقيادة (قبودان) عظيم لعله يجد فرصة لخلع الباشا واسترداد الحكم للسلطان ؛ على أن مركز الدولة الطرابلسية كان واسعا من الناحية التجارية ؛ فقد وصفت الكاتبة نشاط تجارة القوافل مع السودان وأواسط أفريقيا ، وما كانت تأتى به من الخيرات إلى الساحل حيث يوزع على بلاد أوربا ، ويجنى تجار طرابلس من ذلك الأموال الطائلة ، وكان من أكبر السلع التى تقوم عليها هذه التجارة — هى السلعة الانسانية — الرقيق الأسود الذى كانت أسواقه رائجة فى أوربا وأمريكا .

ومن الطريف أن الكاتبة كانت ذات يوم تتحدث إلى أحد امراء (برنو) ، وكان إذ ذاك ضيفا على حكومة طرابلس ، وجاء ذكر تجارة الرقيق فى أثناء الحديث ، فانفجر الأمير الأسود قائلا للكاتبة : « إن المسيحيين (أى الأوربيين) هم الذين يتعقبون الأطفال والبنات والشبان العزل من الدفاع ، ليتصيدوهم مساعدة الوثنيين من قبائل السود ، فهم المسؤلون عما فى هذه التجارة من فظاعات » ، فاذا أضفنا نحن إلى ذلك أن أسواق الرقيق الفسيحة كانت فى أوربا وأمريكا أمكن أن نضم أصواتنا إلى صوت أمير برنو .

والكاتبة تستطرد فى حديثها عن الرقيق فتذكر فى بعض خطاباتها قصصا عن الجوارى البيض أيضا ، وهن من اليونانيات على الأكثر ، وبعضهن اسبانيات من سبايا المصادمات البحرية ، فتذكر أمثلة منهن صرن مسلمات وتزوجن الأعيان ، أمثال السيدة الكريمة (امنانى) زوجة الحاج عبد الرحمن قنصل طرابلس فى انجلترا ، فقد حسن إسلام هذه السيدة وأخلصت لزوجها إخلاصاً شديدا مع أنه كان أكبر منها سنا ، ورفضت أن تستجيب إلى دعوة أخيها عندما جاء يزورها وعرض عليها العودة معه .

وتقول الكاتبة أن الآباء اليونانيين كانوا يعنون بتربية بناتهن قاصدين أن يبيعوهن إلى الأعيان ، وكانوا يعلمونهن الموسيقى وتدبير المنزل والتطريز كيما يزيد سعرهن .

وتحمد الكاتبة للباشا أنه لم يتخذ من الجواري سراري — فلا هو تسرى بالسودان ولا بالجواري البيض — ولم يتزوج سوى امرأته النبيلة (للاَّحلومة) ، و«للا» معناها السيدة أو الأميرة .

ومنذ أواخر سنة ١٧٨٤ تكاد خطابات الكاتبة تدور حول وباء الطاعون الذى بدأ يهدد البلاد آتيا من قبل تونس ، وكان ذلك الوباء قد تفشى فى مصر ، ولكن الصحراء الفسيحة منعت تسربه منها إلى طرابلس ، فما أتى عام ١٧٨٥ حتى كان الوباء يعصف بالبلاد عصفا شديدا .

والكاتبة تصف قلة عناية المسلمين بالوقاية من العدوى ، وتقول إنهم يعالجون الوباء بالأدعية والأحجبة والرقى ، ولكنها مع هذه السخرية تنفى بشجاعتهم فى مواجهة المرض ، فكان الأوربيون واليهود يهربون إلى خارج البلاد ، أو يغلقون عليهم بيوتهم ، وكان منهم من يوقد فى فناء بيته نارا عظيمة فلا يكلمه أحد من الخارج إلا من ورائها ، وقد هرب الطبيب الوحيد الذى كان فى المدينة وهو أيطالى ، فسافر إلى مالطه . على حين تصف الكاتبة المسلمين (أى أهل البلاد) بأنهم يظهرون شجاعة ومروءة يستحقان الإعجاب ؛ فهم يقفون الى جانب المصاب المسكين حتى يفارق الحياة وهو تحت رعايتهم — ولو كان من الأوربيين أو اليهود — وكان المرض فظيعا يقضى على المصاب فى ساعات وهو بين آلام مبرحة من الورم الذى يعترى جسمه ، وفى الساعات الأخيرة يعتريه هذيان ويصيح صياحا جنونيا ؛ وتذكر الكاتبة أن امرأة وطنية اخترعت طريقة لمعالجة المرض بأن تشق الخراج وتخرج أذاه فيشفى المريض ، وتقول إن الطبيب الايطالى الهارب عالج المرضى فى مالطة بهذه الطريقة عندما سمع عنها ، وكان يربط المشرط فى طرف عصا طويلة ، ويستعين فى عمليته بعدسة مكبرة مقربة ؛ حتى لا يقترب من المريض .

وخفت وطأة الوباء فى آخر سنة ١٧٨٥ بعد أن حصد من الناس عدداً كبيراً تقدره الكاتبة بثلثى المسلمين ، ونصف اليهود ، وتسعة أعشار الأوربيين

وتذكر الكاتبة بعض قصص ساخرة عن سلوك اليهود فى وقت الوباء ، فقالت إنهم كانوا يتجرون فى الملابس التى كان يستخلعها المرضى عندما يقذفها أهلوهم ؛ فكان اليهود يرسلون تلك الملابس لتباع خارج البلاد ؛ وقالت كذلك إنه عندما اشتد الوباء وقلت الأقوات حتى حدثت مجاعة فى المدينة بعث الناس فى طلب القمح من ايطاليا ، وفيما هم ينتظرون السفينة التى تحمل القمح جاءت سفينة محملة بتوابيت الموتى ، استعجل أحد اليهود حملها على السفينة بدلا من القمح ، لأن أسواق التوابيت كانت فى ذلك الوقت رائجة وسعرها مرتفع .

وتذكر الكاتبة بين حين وآخر من بين أحاديثها عن الوباء أموراً أخرى خطيرة حول ما يدور فى القصر من مؤامرات وخلافات عائلية ، وكانت تعرف الكثير من أسرار القصر التى تخفى عادة عن جمهور الناس ؛ وهى صريحة فى هذه الأحاديث ، فلا تخفى شيئا وإن كان ذكره محرجا ، فهى تذكر مثلا أن حفيدا للباشا (ابن بنته) راود امرأة عمه سيدى أحمد عن نفسها ، ونشأت عن ذلك فضيحة أدت إلى خروج ابنة الباشا من القصر وانفرادها بمسكن وحدها ، كما تذكر عن الأمير يوسف قصصا مماثلة . وتتحدث عن امرأة ذات صلة بالأسرة المالكة كانت تخدم ذوى الأغراض الشائنة وذوات النفوس الضعيفة من رجال الأسرة ونسائها خدمات حقيرة .

وتتبعت الكاتبة تطور المشاحنات التى كانت مستمرة بين سيدى حسن وأخيه سيدى يوسف ، وفى كل أطوارها ما ينم عن الإعجاب بسلوك الأمير حسن الذى كان يترفع عن مقابلة إساءة أخيه بمثلها ، بل يبدى نحوه مايكاد يبلغ الاستخفاف .

وقد بلغت هذه المشاحنات ذروتها فى سنة ١٧٨٩ ، والكاتبة تصور نهايتها الأخيرة بوصفها للمكيدة التى دبرها يوسف لأخيه ، فقد ذهب

يوما الى أمه (للاحلومة) متظاهراً بالأسف الشديد على ما يثور بينه وبين أخيه الأكبر ، ففرحت الأم فرحا شديدا بذلك التغير المفاجىء ودعت لولدها بالخير وسارعت إلى إيفاد رسول إلى ولدها الأكبر ليحضر إليها حتى يتم الصلح بينه وبين أخيه على يديها ، وكان شرط المقابلة أن يحضر الأميران وحدهما بغير اتباع ولاسلاح ، وهناك تقابل الأخوان وتعانقا ثم تصافيا ، واقترح يوسف أن يحلفا على القرآن الشريف ألا يغدر أحدهما بالآخر . وقام يوسف فنادى باحضار المصحف وكانت تلك علامة بينه وبين بعض عبيده الذين أكمنهم فى الغرف المجاورة ، فناولوه غدارته بدلا من المصحف ، واشتركوا معه فى إفراغ طلقاتهم فى الأمير حسن المسكين حتى أصيب باحدى عشرة طلقة ، وذهلت الأم ولم تستطيع أن تدافع عن ولدها ، وأصابتها رصاصة فى يدها وهى تحاول أن تدافع عنه ، وكان ذلك فى بحر شهر يوليه سنة ١٧٩٠

ولما فرغ يوسف من جريمته الدنيئة خرج من القصر ، وعرج فى طريقه على الشيخ (عبد الله بيه) شاه القصر فقتله لأنه كان يعرفه صديقا مخلصا لأخيه . وتتبع بعد ذلك أعوان الأمير القتيل فأهلك بعضهم ، ونجا منه البعض بأن التجأ إلى بعض الأقوياء من أفراد الأسرة. وكان مقتل الأمير حسن بمثابة إعلان للثورة والفوضى فى البلاد كلها ، فصارت أرباض طرابلس ميدان كر وفر بين أتباع الأمير القاتل وبين الباشا المسكين وولده الأوسط أحمد الضعيف ، واستمرت هذه القلاقل ثلاث سنوات مشحونة بالنكبات والفوضى والمجاعات ،وبلغ الفزع حداً جعل قناصل الدول الأوربية يستعدون للنزوح إلى بلادهم .

وفى يوليه سنة ١٧٩٣ جاءت الأخبار أن الدولة العثمانية فطنت آخر الأمر إلى الفوضى التى ضربت أطنابها فى البلاد ، ورأت تلك فرصة تقتنصها لاسترجاع حكمها ، فارسلت أسطولا مع القائد (على بازون؟) لطرد على باشا القرمانلى وأسرته وارجاع البلاد إلى حوزة الدولة العثمانية كما كانت قبل أن يستقل بها جد الأسرة فى سنة ١٧١١ ؛ ولم يلبث ذلك

الأسطول أن جاء وأعلن القبودان عزل الباشا ، فلم يجد المسكين إلا أن يدعو دعوة يائسة لجمع الشمل لمواجهة الكارثة التي تهدد الأسرة كلها ، غير أن ذلك لم يفده شيئا ، واستطاع القبودان أن يدخل المدينة في ٣٠ يوليه سنة ١٧٩٣ ، وخرج الباشا وهو مريض محمول على أكتاف خدمه حتى أركب على فرس وهو لايكاد يقوى على الركوب ، وأغمي عليه في أثناء ذلك مرتين ، ثم سار خارجا من المدينة لا يدري ماذا تخبىء الأقدار لأسرته ؛ وأما أهله فقد خرجوا من القصر واختفوا بين أهل المدينة أو أرباضها .

وكانت الكاتبة من بين أفراد أسرة القنصل الانجليزي التي رحلت مسرعة عن المدينة وبارحت ميناءها في ٢٧ أغسطس من عام ١٧٨٣ ، غير أن الأمر لم يستقر عند ذلك الحد ، فإن الحاكم التركي أخذ يعسف بأهل المدينة ، وكان من بينهم المسكينة (استر) سميرة الباشا ، وكان من نصيبها السجن المظلم في القصر ، وكانت السلسلة التي ربطت فيها قصيرة تحز في قدميها حتى أن ابنها ذهب في المدينة يلتمس قطعة من سلسلة ليطيل بها رباط أمه البائسة ، وكانت استر ضحية لما حسبه الباشا التركي عندها من الأموال .

واستمر يوسف في موضعه خارج المدينة ليحارب الباشا العثماني ، وما زال يناوشه حتى أتته الأمداد من والي تونس (حموده باشا) فاستطاعا معا أن يهزما الباشا التركي ويعيدا الأسرة القرمانلية إلى حكم طرابلس ، وكان علي باشا أضعف من أن يرضى بالعودة إلى الحكم كما أن ولده أحمد كان أضعف من أن يقف في وجه أخيه الأصغر المتمرد ، واستطاع آخر الأمر الأمير يوسف أن يستولي على الحكم ليكون آخر من حكم طرابلس من الأسرة القرمانلية .

وكانت الضربة التي قضت على أساس هذه الدولة ضربة فذة أتت من جانب لم يكن أحد يتوقعه ، فقد نشبت الحرب بين يوسف باشا وبين دولة أمريكا الناشئة ، ولأول مرة في تاريخ البحرية الطرابلسية تحطم الأسطول تحطيما تاما ، فكانت تلك ضربة قاضية على هيبة الباشا الأخير ؛ ولم يلبث ملكه أن تحطم في عام ١٨٣٥

وبعد فلست أدرى إذا كان الفقيد الكريم الأستاذ عبد الحميد العبادى قد اطلع على هذا الكتاب القديم فيما اطلع عليه من قراءاته الواسعة ، ولكنى أحسب أنه لو كان قرأه لوجد فيه متعة كبرى ، وأنى لأشعر بأعظم الارتياح أن أكتب هذا الفصل فى مناسبة ذكراه اعترافا منى بما كان للفقيد الكريم من مزايا العلم وغزارة الفضل وسعة الاطلاع .